I ـ اقتراحات برسم المجلة

عزيزي الدكتور سماح، السلام عليكَ وراقت أيامُك.

قرأتُ العدد الأخير من الآداب، فوجدتُه، بملفّاته الثلاثة، عددًا وثائقيّاً على درجةٍ كبيرةٍ من الأهمية. وأقول بمحبّة: إنّ ما كتبتَه أنتَ عن وفاة الوالد في افتتاحيتِكَ كان أجملَ ما في العدد. فهو مرثيّة من طراز فريد، بكلّ ما فيها من تفاصيل حميمةٍ مؤثِّرة، شخصيةٍ وعائليةٍ. لقد قرأتُ ما كتبتَ مرتين: مرةً حين أرسلتَه بالبريد الإلكتروني، ومرةً حين وصلني العدد، فزادني ذلك إعجابًا به.

والآن، اسمحْ لي بأنّ أبدي ملاحظةً طالما تردّدتُ في إبدائها لك، فأقول: إنّ الآداب ما زالت بها حاجةٌ إلى وقفةِ مراجعة. فقد كنتَ وعدتَ في افتتاحية عدد آب ـ أيلول ٢٠٠٦ بما يعطي للإبداع الأدبي حصّةً معقولةً من صفحات المجلة، ولكنّ هذا **لم** يتحقَّقْ في أعدادها اللاحقة، إذ بقي الإبداعُ الأدبيُّ مهمَّشًا لصالحِ ما هو فكريّ وسياسيّ، وظلت المجلة فكرية ـ سياسية أكثرَ بكثيرٍ ممّا هي مجلة أدبية؛ وهذه مفارقةٌ واضحةٌ بين اسمها ومحتوياتِ أعدادها، وهي، قبل ذلك، مفارقةٌ بين ماضيها وحاضرها.

قد تكون لديكَ مسوِّغاتٌ نضاليةٌ تتجه بالمجلة نحو الفكر والسياسة. وقد يكون لتكوينكَ الفكري والسياسي، بل ولمزاجكَ الشخصي، دخلٌ في السير بالمجلة في هذا الاتجاه. ومع أنني لا أُنكر عليكَ ذلك، وليس هذا من حقّي، لكنني أعتقد أنّ على المجلة أن تعطي للأدب حقَّه ما دامت تَحمل اسمَه. وأظنّ أنّ حقّ الأدب فيها ينبغي أن يكون حصّةً متوازنةً مع حصّة الفكر والسياسة في الأقل، لا الحصّةَ الهامشيةَ المتاحةَ له الآن.

لقد خسرتِ المجلةُ أغلبَ جمهورها الأدبي، من كتّابٍ وقرّاء، بسبب ضمور حصّة الأدب فيها، وفقدانِ التوازن بين هذه الحصّة وحصّةِ الفكر والسياسة. وهي الآن، وربما أكثرَ من أيّ وقتٍ مضى، مدعوّةٌ للأخذ بمبدإ التوازن؛ وأعني بذلك تخصيصَ عددٍ من الملازم (الصفحات) للأدب يتوازن مع العددِ المخصَّص للفكر والسياسة. فحصّةُ الفكر والسياسة مفتوحةٌ فيها الآن، بينما حصّةُ الأدب مقيَّدة. والمخصَّص للأدب مَلْزمةٌ واحدةٌ أو أكثرُ قليلاً، وهو لا يصل إلى مَلْزمتيْن في أيّ حالٍ من الأحوال، والباقي كلُّه للفكر والسياسة. وما أكثرَ ما جارت المجلةُ على حصّة الأدب الضئيلة لصالح الحصّة الأخرى! وهذا لا يشجِّع جمهورَ الأدب على الإقبال عليها كما أرى.

في ظنّي أنّ المجلة تستطيع أن تستعيدَ دورَها الأدبي الطليعي في الوطن العربي من دون أن تتخلّى عن رسالتها الفكرية والسياسية، أو تقصِّرَ في أدائها، إنْ هي أخذتْ بمبدإ التوازن بين الحصّتين وَرَعَتْ كلَّ الأجناس الأدبية من قصة ورواية وشعر ومسرح ونقد وغيرها، بل والفنون التشكيلية والموسيقية أيضًا، وخاصةً إذا اتّجهتْ إلى استقطاب الأدباء العرب المهمَّشين في أقطارهم (أو منافيهم) لأسبابٍ سياسيةٍ أو فكريةٍ أو اجتماعيةٍ أو غيرها، وما أكثرهم! بل هي تستطيع أن تفعل ذلك أيضًا مع وجود آلاف الأدباء، وربما عشراتِ الآلاف، الذين تضيق بهم مساحةُ النشر في أقطارهم برغم تعدّد مجالات النشر المحلّية وتنوّعها؛ وكثيرٌ من هؤلاء يَطْمح إلى انتشارٍ عربيّ مشروعٍ والوصولِ إلى منابر أدبية محترمة مثل الآداب.

وحبّذا لو استطاعت المجلة، الآن أو في المستقبل القريب، تعيينَ مراسلين ثابتين لها، في بعض الأقطار العربية في الأقلّ، يكتبون لها تقاريرَ عن النشاط الثقافي في أقطارهم، ويتّصلون بالأدباء والمثقفين لاستكتابهم بتوجيهكَ وإشرافكَ، كما كانت تفعل من قبل. وأودّ أن أذكّرك بأنّ الفقيد الدكتور سهيل كان يراسل الأدباءَ والمثقفين ويتّصل بهم يومَ كانت وسائلُ الاتصال دونَ ما هي عليه اليومَ بكثير، فلمَ لا تحاول أنتَ ذلك اليوم؟ فالملاحَظُ عندي أنّكَ تتصل بذوي الاهتمامات الفكرية والسياسية، ولا تتصل إلاّ بمَنْ يتصل بك من الأدباء!

وأشير، في هذه المناسبة، إلى عدم التزام الآداب بعددٍ ثابتٍ، أو ثابتٍ نسبيّاً، من الصفحات، سواءٌ في أعدادها الاعتيادية أو أعدادها الخاصة؛ وهذا مربكٌ من الناحيتين الإدارية والمالية في ما أظنّ. ولذا أقترح النظرَ في هذا الأمر أيضًا، وتخصيصَ عددٍ ثابتٍ من الصفحات للعدد الاعتيادي، وعددٍ آخر مناسبٍ للعدد الخاصّ، إلاّ في حالاتٍ

استثنائيةٍ تَفْرضها الظروف.

وبعدُ، كنتُ سأقترح عليك أن تُصدر دارُ الآداب مجلّتين بالتناوب: إحداهما فكرية ـ سياسية، والأخرى أدبية ـ فنية. ولكنّي فكّرتُ بالصعوبات الإدارية والمالية التي ستتحمّل أوزارَها، فاكتفيتُ بهذه الإشارة.

أرجو أن تَحْمل ملاحظتي هذه على مَحْمل محبتي لكَ، ولـ الآداب وتراثِها ومكانتها. وأنتَ صاحبُ القرار من قبلُ ومن بعدُ. ودُمْ بخيرٍ وعافية.

سامي مهدي، نيسان ٢٠٠٨

عزيزي الصديق والشاعر/الناقد سامي مهدي المحترم،

تحيةً لك، ولأحرار العراق، وشكرًا على اقتراحاتك، وأعِدُكَ بأن تخصِّص الآداب ابتداءً من العدد القادم مساحةً أكبر للنقد الأدبي والشعر والمسرحية والقصة.

لا أخفيكَ أيُّها العزيز أنّ هناك أكثرَ من سبب لـ «طغيان» الفكر والسياسة على الأدب في الآداب. **الأوّل** هو ما تنبّهتَ إليه، وأعني تكويني ومزاجي الشخصي؛ فأنا أكثرُ ميْلاً إلى أمور الفكر والسياسة والعمل العامّ من أمور الشعر والقصّة والنقد، مع أنّ دراستي (ويا للمفارقة) كانت في الأدب العربي والرواية العربية تحديدًا. لكنّني، وهنا السبب **الثاني**، بتُّ منذ زمنٍ أشعر بشيء من الضيق بكثيرٍ ممّا يصلني من مادّةٍ أدبية إبداعية، بل وصرتُ أشعرُ بالكثير من المَلَل حين أقرأ نقودًا أدبيةً كالتي صَرَفْتُ أعوامًا طويلةً في قراءتها ودراستها وأنا على مقاعد الدكتوراه، وأفتقر فيها إلى الكثير من الأصالة والجدّة اللتيْن غالبًا ما غابتا في لجُج النقل المُنْبهر بالنظريات النقدية الغربية. والسببُ **الثالث** أنّني أعتقد أنّ الآداب في الأعوام الأولى من ترؤُّسي تحريرَها (١٩٩٢ ـ ٢٠٠٠) لم تَبْخلْ على القرّاء بالأدب والنقد الأدبي؛ وتكفي جردةٌ سريعةٌ بعناوين ملفّاتها لتعطي القارئَ صورةً عن ذلك الاهتمام: خليل حاوي، غسّان كنفاني، نازك الملائكة، السيّاب، البيّاتي، إلياس خوري، المرأة العربية والإبداع، التجريب في الرواية العربية، أبحاث وشهادات في الرواية العربية، الترجمة (ملفّان)، جبرا، حوارات مطوّلة مع روائيين لبنانيين (٨ حلقات طويلة على ما أظنّ)، نزار قبّاني، غالب هلسا، الأدب العراقي الحديث، الأدب المغربي الحديث، أدب الإمارات، الأدب السعودي، الأدب الموريتاني، الأدب الكويتي، الناقد محمد مفتاح، وعشرات الملفّات «الأدبية» الأخرى التي تَقْصر ذاكرتي عن الإحاطة بها. وهذا طبعًا لا يبرِّر وحده تراجُعَ الآداب عن مواصلة ملفّاتها الأدبية، ولعلَّ تنبيهَكَ إيّاي الآن حافزٌ على مراجعة مسيرة الأعوام الأخيرة كما قلتُ. لكنّ السبب **الرابع**، وربّما الأهم، هو شعوري بافتقار الساحة الثقافية العربية إلى منابرَ قوميةٍ يساريّةٍ متجدِّدة، تُعيد إلى قلب التفكير العربي «فكرةَ فلسطين» (بلغةِ الكاتب العظيم إدوارد سعيد) أولاً، و«فكرة المقاومة» ثانيًا ـ وكلتاهما فكرتان تكادان أن تَغْرقا في حُمّى التنظير الليبرالي واليساري المزيَّف لأفكار «الدولة» و«المجتمع المدني» و«حقوق الإنسان» و«الديموقراطية» و«الإسلام.» ولعلّ نشاطي الشخصي ضمن أُطُرٍ اجتماعية وسياسية تسعى إلى تجديد القومية العربية، والدفاع عن المقاومة في لبنان وفلسطين والعراق، مسؤولةٌ إلى حدٍّ بعيدٍ عن «انزلاقي» التدريجي نحو السياسة المباشرة (وربّما الضيّقة أحيانًا). على أنّه يبقى سببٌ **خامس**، وأخير، لذلك الانزلاق، وهو ثقتي بأنّ دار الآداب، التي تُصدر مجلةَ الآداب، تقومُ بمهمّةٍ جليلةٍ في نشرِ أوجه الإبداع الأدبي، وأحيانًا على حساب الفكر والسياسة.

أشكركَ مجدّدًا على متابعتك الدؤوب لمجلّتنا، وإسهامك الدائم فيها. وأشكركَ على ملاحظاتك القيّمة التي أعِدكَ ـ مجدّدًا ـ بأن آخُذَ ببعضها (باستثناء إصدار مجلّتين، فنحن بواحدةٍ لا نكاد «نُقلِّع»!) ضمن إمكانياتنا. وأدعو، هنا، بالمناسبة، جمهورَ القصّاصين والشعراء ونقّاد الأدب والمسرح والسينما إلى أن يعتبروا الآداب منبرًا لهم.

سماح إدريس، أيار ٢٠٠٨

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

II ـ عن «بابا الدكتور سهيل إدريس»: حوار مع رغداء زيدان، وردّ من ميرين غصين

جرى بيني وبين السيدة رغداء زيدان الحوارُ التالي (٦ رسائل إلكترونية) حول افتتاحيتي عن البابا الدكتور سهيل، رأيتُ أن أنقله تعميمًا للفائدة. ويلي ذلك تعليقٌ من الصديقة د. ميرين غصين، التي أطلعتُها على ذلك الحوار عبر الانترنت. (س.إ)

الأستاذ سماح إدريس،

منذ وفاة والدك الدكتور سهيل إدريس وأنا أنتظر ما ستكتُبه عنه. كنتُ أريد أن أُشبع حسّي الفضولي الأنثوي لمعرفة المزيد عن رجلٍ أَعتبرُه من الرجال الشرفاء القلائل في عالم الثقافة والأدب. فرغم اختلافي معه في بعض الآراء والقناعات، فإنّ هذا لا يَمْنع أنّني كنتُ أشعر بأنّه رجلٌ يستحقّ الاحترام، ومجلته الآداب كانت دومًا محلَّ احترام وتقديرٍ ومتابعةٍ مني.

عندما شاهدتُ مقالك في الآداب، «بابا الدكتور سهيل إدريس،» شعرتُ بحزنك العميق منذ أن قرأتُ العنوان. أخرجتُ المقالَ ووضعتُه جانبًا. لم أقرأه لأيام؛ كلَّ يوم كنتُ أنظر إليه وأقول «اليومَ سأقرأه،» ولا أعرف لماذا كنتُ أؤجّل ذلك، حتى حان الوقت.

كنتُ أنا وأمي في البيت. أمي امرأةٌ لا تقرأ ولا تكتب. لم تسمعْ بأبيكَ، ولا بكَ، ولا بمجلة الآداب، ولا غيرها. لم تسمعْ عن المتاجرة بالثقافة والأفكار. ولم يكدِّرْها تحوُّلُ كثيرين، وبيعُهم لضمائرهم مقابلَ مناصبَ وأموالٍ.

قلتُ لنفسي: «سأقرأ المقالَ عليها لتتعرَّف على هذا الرجل.» لا أعرف سببَ قراري، ولكنني ربما كنتُ أريد مَنْ يشاركني حزني على رجلٍ من رجالٍ قلائل حزنتُ على فقدهم. بدأتُ بقراءة المقال، وكان مكتوبًا بلغةٍ بسيطةٍ تلقائيةٍ طريفة، ممّا جعل الفهمَ سهلاً على امرأةٍ لا تقرأ ولا تكتب كأمي.

كنتُ أنتظر أن يتحدّث سماح عن أبيه لأعرِّفَ أمي عليه. ولكنّ المقالَ كان عبارةً عن نقلٍ لأحداث الدفن والتعزية، والتي حملتْ كثيرًا من الرسائل التي لم تعجبْ أمي! فلقد استنكرتْ أمي إلحاحَكَ على نفي الإيمانِ والالتزام عن والدكَ، وتصويركَ لحياته وملذّاته. واستنكرتْ عدمَ مشاركتكَ في الصلاة عليه. لم تستطعْ، يا أستاذ سماح، في هذا المقال أن تعرِّف أمي على والدكَ الإنسانِ النزيهِ الشريفِ صاحبِ الفكرة والنضال والمبدإ، ولكنكَ صوّرتَ لأمرأةٍ عاميّةٍ جانبًا من شخصية والدك لا تهمّنا معرفتُه حقيقةً. فما هي أهمية أن نَعْرف أنّ والدكَ كان مسلمًا على طريقته؟ ماذا يهمّنا إنْ كانت علاقتُه بربّه بهذا الشكلِ أو بذاك؟

يا أستاذ سماح، كان والدُكَ وكنتَ معه ومازلتَ تدافع عن الناس والمقهورين، وتطالب باحترام الناس وتسعى لتوعيتهم. فلماذا تكتب ما يؤكّد أنكَ تحتقر أهمَّ ما يؤْمنون به؟ لماذا كلّما مات مثقفٌ محترم، ترى مَن يؤبّنونه يسعَوْن بكلّ جهدهم لنفي تهمة الإيمان عنه ولتصوير حياته على أنّها خمرٌ ونساءٌ وإلحاد؟!

مات نقولا زيادة، فما قرأتُ من أصدقائه إلاّ وصفًا لسُكره وحبّه للنساء. ومات جوزيف سماحة، فكُتب عنه هذا. ومات ممدوح عدوان، فكانت خمريّاتُه أهمَّ ما يميّز سيرتَه. واليومَ تأتي أنتَ لتصف حبَّ والدك للملذّات والنساء؟!

لا أعرفُ ما هو المميَّز في هذا؛ غير أنّه، في رأيي، شعورٌ داخليٌّ عميقٌ بالتمرّد: التمرد على المجتمع وقيمه وأخلاقه!

بالتأكيد، لا مانع عندي من التمرّد! ولكنْ ليكن تمرّدًا على كلّ عادةٍ سيئة. صَدِّقْني، يا أستاذ سماح، لقد حزنتُ كثيرًا عندما قَبِلتَ بصرف أموالٍ طائلةٍ على شراء القبر ومراسم الدفن وعمل الطعام فقط لأنك حسبتَ حسابًا لـ «ماذا سيقول الناسُ الكلابُ لو استَرْخَصْنا موتَكَ (...)؟ سيتّهموننا بالبُخْل والعقوق، وقد نُحْرِجُ الماما أمام 'العائلات' البيروتية»!

كم تمنّيتُ لو أنّكَ تمرّدتَ على هذه العادات السخيفة، لو أنكَ حفظتَ أموالَكَ وصرفْتَها على غير هذا «البرستيج» السخيف الذي تعلن قرفَكَ منه. ولكنّكَ، في الآخرِ، خَضَعْتَ لعاداتٍ اجتماعيةٍ طبقيةٍ بالية، إلا أنكَ «تجرّأتَ» (وأعرفُ أنك ستنزعج من هذه الكلمة) على تصوير لامبالاتكَ ولامبالاةِ والدِكَ بما يؤْمن به عامةُ الناس البسطاء!

ربما لن يعجبَكَ كلامي. وأعتقد أيضًا أنّه لا يهمُّكَ رأيي، ولا رأيُ أمي. ولكنني أحسستُ أنّني بحاجةٍ إلى نقلِ هذا لك. فاقرأْ ما كتبتُ، ثم ارمِه خلف ظهرك!

رغداء زيدان

عزيزتي رغداء،

أشكركِ على صراحتكِ وصراحةِ السيدة والدتكِ. أحترمُ ما تفكّران به، ولكنْ هل تستطيعان أن تحترما ما أفكّر به؟ أيُّ عيبٍ في أن أكون صريحًا فأتحدّثَ عن علمانية أبي (وهي، لعلمكِ، غيرُ الإلحاد) وعن حبّه للنساء؟ وهل أكتب لأرضي الناسَ؟ وهل أكتب لأكذب؟ وهل لا يهمّكما في أبي شيءٌ إلاّ إذا كان على مقاييسِكما من التقوى والورع؟

أنا لا أحتقر المؤمن أبدًا، ولا أحتقر عاداتِه وشعائرَه. ولكني أشترط أيضًا أن يتقبّلَ هذا المؤمنُ الملتزمُ غيرُ العلمانيّ أن يعيش الآخرون كما يشاؤون، إنْ لم يتعرّضوا له بأذًى. ما مشكلتُكما معي، يا سيدتي، إنْ كان سهيل يحبّ النساءَ والملذّات؟ هل ذهب كلُّ ما فعله من أجل فلسطين والعراقِ واللغةِ والأدبِ سدًى؟ وهل جرحتُكما لأنني لم أصلِّ؟ هل كنتما ستحترمان مقالي لو ادّعيتُ الصلاةَ أو صلّيتُ من غير إيمان، شأنَ آلاف الناس؟ وما علاقةُ هذا كلِّه بالكتابة عن سهيل أصلاً؟

بالمناسبة، أنا لم أكتبْ عن سهيل، بل كتبتُ له، لأنّني مازلتُ أشعرُ به حيّاً، أو لأنني أرغب، عبر سرد الحياة اليومية بين يديه، في أن أشعرَ به كذلك، في أن أستبقيَه أمامي ولو على امتداد ثماني صفحات. هدفُ الافتتاحية التي كرهتماها، أنتِ والسيدة والدتكِ، لم يكن التعريفَ بسهيل، وإنْ كنتُ أستطيع الزعمَ أنّها عَرّفتْ بأمورٍ لم يَكْتب عنها أحد. ولكنْ ما قيمةُ تلك الأمور عندكما، كما يبدو، إنْ لم تتوافقْ مع معتقداتكما التي تَنْظران إلى كلّ شيء من خلالها وتحاكمان كلَّ إنسانٍ على أساسها؟

أما عن نقدكِ لتمرّدي المنقوص، فأنتِ محقّة. ولو لم تكن أمي تحترم التقاليدَ مثلَكما، لما التزمتُ بكثيرٍ ممّا اعتبرتُه تجارةَ موت. ولكني أُعْلمكِ بأني لا أريد لنفسي قبرًا دولُوكسًا ولا ليموزينًا ولا خيمةً خضراءَ ولا سيارةَ إسعاف، وأرجو من عائلتي أن تلتزمَ رغبتي.

ختامًا يا عزيزتي، أرحّبُ بنقدِكِ، وأرجو منكِ أن تحترمي فكرَنا أو تمرُّدَنا (المنقوصَ) ما دمنا لا نَفْرض شيئًا عليكِ ولا على والدتك الكريمة.

مودّتي

(ملاحظة: هل تسمحين لي بنشرِ رسالتك؟)

سماح إدريس

أهلاً بك يا سيّدي سماح،

لن أبدأ بشكركَ على الردّ؛ فهذا ما كنتُ أتوقّعه منكَ. ولكنّني أودُّ أن أقول لكَ إنني لم أطلبْ منكَ أن تتحدّث عن والدكَ بما ليس فيه، وإنما نقلتُ لك رأيَ أمي، وهي واحدةٌ من بسطاء الناس الذين ندافع عنهم ونتحدّث باسمهم! أولئك الذين ننساهم وننسى ما يقرّبنا إليهم. وهذا لا يعني أن نكتبَ ما يرضيهم، ولكنْ أن نراعي ما يفكّرون به.

أعرف تمامًا أنّ العلمانية ليست هي الإلحاد. وربما أكون أنا علمانيةً، ولكنْ على طريقتي.

أحببتُ أن تَعْرف أمي ما أعرفُه عن والدكَ من نزاهةٍ وشرفٍ وثباتٍ على الحق. هذا كلُّ ما في الأمر! لا أطلب، ولن أطلب إليك، أن تكتبَ غيرَ ما تؤْمن به. وبالتأكيد، فإنّني لم أحترمْ والدَكَ لأنّني كنت أظنّه تقيّاً ورعًا، ولا أحترمُكَ أنتَ أيضًا لأنني كنتُ أظنّ أنّكَ تصلّي وتعبد اللّه. كنتُ، ومازلتُ، أحترم ذلك الشرفَ وتلك النزاهةَ وذلك الصدقَ التي عرفتُها فيكما.

أستاذ سماح ، أرجو أن تكون قد فهمتَ قصدي ووجهَ اعتراضي على مقالك. ولك جزيلُ الشكر.

(ملاحظة: تستطيع أن تنشرَ رسالتي الأولى إذا أردتَ، ولكنْ مع الردّ هذا إذا لم يكن عندك مانع).

رغداء

عزيزتي رغداء،

فهمتُ طبعًا اعتراضاتكما منذ البداية. ومع ذلك، فمازلتُ لا أفهم لماذا ينبغي عليَّ (وخاصةً أنني أنا المفجوعُ بوالدي الآن) أن أراعيَ ما يفكّر به الآخرون؟ ثم هل جدّفتُ إنْ كتبتُ عن الملذّات والعَلمانية والنساء وعدم الصلاة...؟ إنْ جدّفتُ فعلاً، فبإمكانكما بكلّ بساطة أن تمتنعا عن قراءتي بعد اليوم إنْ كان كلامي يؤْذيكما، أو أنَ تنتقداني دومًا مثلما فعلتما الآن، وأنا متفهّمٌ في الحالين.

النقطة الأخيرة التي أودّ التطرّقَ إليها: مع احترامي «للناس البسطاء الذين ندافع عنهم،» فإنّ ذلك لا يعني بالضرورة أن نراعيَ ما يفكّرون فيه إنْ كان لنا رأيٌ مخالف! دورُنا كما أراه، أيتها الكريمة، ليس المسايرةَ والمراعاةَ: فنحن (ككتّاب في الآداب وعامةً...) لسنا حزبًا أو مرشّحين للنيابة أو للرئاسة لنستدرَّ التعاطفَ، وإنما دورُنا هو السعيُ إلى الاقتراب قدرَ المستطاع من الحقيقة والعدالة أو ما نؤْمن أنّه كذلك. وقد نصطدم في سبيل ذلك بأمّي وأمّكِ وجدّي وجدّكِ... فنتناقشُ ونتجادلُ وربما نتعارك. المهمّ ألاّ نتخلّى عن سعينا إلى الحقيقة والعدالة؛ والأفضل أن يبقى الحوارُ قائمًا بين الكاتب والناس ما استطاع الطرفان إلى ذلك سبيلاً، من دون تملّقٍ ولا محاباةٍ ولا تزلّفٍ ولا انبهارٍ ولا تقديسٍ ولا شعبوية.

مع مودتي وشكري على صراحتكما.

سماح

أستاذ سماح،

وودتُ أن أقول أخيراً أنني لن أترك قراءةَ الآداب، ولن أمتنع عن قراءة مقالاتك...

رغداء

عزيزتي رغداء زيدان،

اسمي ميرين. وقد قرأتُ رسائلكِ إلى سماح إدريس باهتمامٍ خاصّ لأنّ الخلاف يَدْفع إلى قراءةٍ أكثرَ يقظةً وديناميكيةً، بالنسبة إليَّ على الأقلّ. واسمحي لي بأن أثيرَ بعضَ نقاط الخلاف.

إنّنا، إلى حدّ بعيد، نصادفُ نصّاً أدبيّاً بالطريقة التي نصادف بها إنسانًا، فنكتشفه كلّما مَضَيْنا في سبيلنا. التوقُّعاتُ لا تساعد، بل تميل إلى أن تحدَّ من تدفُّق النصّ، وتُقْحِمُ عليه مقارناتٍ غريبةً عن سياقه. لقد كان في ذهنِكِ سهيلٌ إدريسٌ محدَّدٌ، وأَمِلْتِ أن تلتقيه والدتُك من خلال مقال «بابا الدكتور سهيل إدريس.» ولكنْ، لسوء طالع أمّك، فإنّ عدم معرفتها بسهيل إدريس دفعها إلى التركيز على «الدفن والتعزية» فقط، وعلى رسائلَ اعتبرَتْها مستَنْكَرةً. ولكنْ، أهذا هو لُبُّ افتتاحية سماح إدريس؟

حين قرأتُ التفاصيلَ التي بَدَتْ «مستَنكَرَةً» بالنسبة إليك، قرأتُها في وصفها هامشًا لإنجازات سهيل إدريس الكثيرة. بل الحقّ أنّ تلك التفاصيل زادت من إعجابي به: فهذا الراحل كان يقدِّر بعضَ ملذّات الحياة، وكان في مقدوره أن يستسلمَ لحياةٍ سهلةٍ على ما يفعله كثيرٌ من الناس [الرجال] العرب؛ إلاّ أنّه ـ بدلاً من ذلك ـ اختار أن يوظّف طاقاتِه في خدمةِ

اللغة العربية، والعدالةِ، وحقوقِ الناس. ومَنْ أنا لأُقرِّر إنْ كان عليه أن يختارَ هذا السبيلَ أو غيرَه؟ فبالنظر إلى النتائج، لا أستطيع إلاّ أن أقول إنّه فعل ذلك بنجاح. وأحدُ الدروس المهمّة التي علَّمها ابنَه هو حملُ السياسةِ إلى الثقافة؛ ذلك أنّ السياسةَ تعني كلَّ خيارٍ يؤثِّر في حياتنا وحياةِ الآخرين. لقد كنتِ على صوابٍ في الجهر بخلافك مع الافتتاحية، وها أنا أقوم بالأمر نفسه معكِ. ومع أنّني أفهم ردَّ فعلكِ وردَّ فعلِ أمّكِ، فإنّني أعتقد أنّ هناك شيئًا «مميّزًا» جدّاً في «تمرُّد» أولئك المثقفين الذين تَحَدّوْا «قيمَ المجتمع» (أمثال سهيل إدريس وجوزيف سماحة وممدوح عدوان وآخرين): فلقد كانوا جميعُهم بمثابة خميرةٍ، تَرْفع وعيَنا الساكنَ، وتتحدّانا. وبإمكاننا إمّا أن نقاوم، كلٌّ بطريقته/طريقتها، وإمّا أن نقدِّمَ خياراتٍ عمليةً. وإلاّ فكيف سيكون بمقدور مجتمع أن يزدهرَ ويتقدّم؟ إنّ ذلك درسٌ لا يقدَّر بثمن، درسٌ «نبيلٌ» جدّاً للعالم العربي، حيثُ يميلُ كثيرٌ من الناس إلى الكلام بدلاً من الفعل، وحيث النُّظُمُ السياسيةُ تعني الجمودَ أكثرَ ممّا تعني التقدّم.

شخصيّاً، أحببتُ [نصّ] «بابا الدكتور سهيل إدريس» كثيرًا جدّاً، أولاً وأساسًا لأنّ نصّاً عن الموت يَنْجح في أن يكون نابضًا بالحياة إلى حدِّ أنّه يصبح فعلَ تمرُّدٍ آخر. ثمة في النصّ ابنٌ مفجوعٌ يَكْتب **مع** روح أبيه الحبيب الحيّةِ، **لا عن** رحيله الجسدي. إنّ النصَّ يَخْرج عن نمط القولِ المتوقَّع والتقليدي الذي نَرْبطه بالموت عادةً، ليقدِّم إلينا مزيجًا من المشاعر والأفكار الحزينة، المُحْبِيَة، المدهِشة، المحبِطة، الفَكِهة، المثالية، السوريالية. تصبح الكلماتُ شريحةً من الحياة، «مخلوطةً» من الأمور المجدولة، لا يُصْرَفُ النظرُ عن أيٍّ منها، ولا يُستخفُّ بأيٍّ منها. وعلى النصّ، كالحياة نفسِها، كالناس أنفسِهم، أن يعامَلَ بكلّيته، بحيث يُضيءُ كلُّ جزءٍ منه الأجزاءَ الأخرى ويُسْهم في فهمنا له برمّته. وأذكر أنّني كتبتُ لسماح إدريس بعد أن قرأتُ افتتاحيتَه، وفيها أملتُ ـ من بين أمورٍ أخرى ـ أن يلتئم لبنانُ، مقتديًا بـ «بيت سهيل العلماني والتقدمي» (كما جاء في تلك الافتتاحية). فأثناء رحلتي الأخيرة إلى لبنان منذ شهرين لاحظتُ الانقساماتِ الكثيرةَ جدّاً، وما زلتُ قلقةً من آثارها السلبية في المجتمع اللبناني؛ ذلك أنّها تُنذر بمستقبلٍ وَعِر.

لقد أعطانا سماح إدريس بافتتاحيته «بابا الدكتور سهيل إدريس» واحدًا من أفضل تمثيلاته على آرائه في اللغة. فقد سبق أن قال في مقابلةٍ مع **الدايلي ستار** (٢٣ كانون الأول ٢٠٠٣): «لقد أردتُ [في أعمالي الموجّهة إلى الأطفال] أن أعاملَ اللغةَ العربيةَ كلغةٍ حيّةٍ، لا كمومياء...». والحق أنّه فعل ذلك حقّاً، فيما هو يحتفي بحياة أبيه وعمله وإرثه. وهذا ليس إنجازًا بسيطًا بالنسبة إلى أيّ كاتب، وهو أيضًا متعةٌ صافيةٌ لمحبّي الأدب. وطوال قراءتي للافتتاحية كنتُ لا أنفكُّ أفكّر في شدّة افتخار سهيل إدريس وعايدة مطرجي إدريس بابنهما سماح، الكاتب.

ميرين غصين، نيويورك

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

III ـ عن سهيل إدريس، المدرسة التي لا تنتهي

قبل أن يفوح عطرُ العدد الجديد في المكتبات وبين أيدي القرّاء، كان يسألني: «شو رأيكْ بالعدد؟»

في البداية كنتُ أتهيَّب سؤالَه: فمَنْ أكون لأبدي رأيًا في الآداب؟ وكيف ستساعدني على ذلك سنواتي... الأقلُّ من العشرين؟ لكنّ الأمور معه لا تقاس بما تعارَفَ عليه الناسُ: فهو الضئيلُ قامةً، الماردُ هامةً أخلاقيةً وأدبيةً وإنسانيةً. إنّه ببساطةٍ: سهيل إدريس!

ولا أحدَ يُشْبه سهيل إدريس في قريبٍ أو بعيد... على الأقلّ بالنسبة إليّ. فإلى اليوم لم أصادفْ شخصًا في دماثة خلقه التي يطالعكَ بها دومًا، بأرقّ و«أهضم» قالبٍ من ذكاءِ الابتسامة ونقاءِ الفكرة.

ولكنْ، لماذا أكتب هذا الآن؟

إحِمْ إحِمْ: ثمة خسائرُ تظلّ تَنْخر في عَظْم الحياة، ورحيلُ الدكتور سهيل هو إحدى أبذخ الخسائر في حياتي. ولذلك، فإنا لا أستطيع أن أنظرَ إلى تلك الأيام التي حظيتُ فيها بمعرفة هذا الرجل الكبير ورعايتِه إلاّ في وصفها مكاسبَ متواليةً لا أنفكُّ أُفيدُ منها إلى الآن، وأعتقدُ أنّني سأفيدُ منها إلى ما لن أعرفَه من حياتي القادمة.

مرّاتٍ كان يطلبَ إليّ أن أقرأ له مقالاتٍ أو قصصًا من العدد الجديد، أو من أعدادٍ أقدم. أقرأ، فيَسمع بقلبٍ وعقلٍ متيقّظيْن لأيّ هفوةٍ لغويةٍ، بل ولأيّ تغييرٍ في نبرة الصوت. يصحّح هنا، يستوقفني ليسألني رأيي هناك، وأجملُ ما أظنّ أنه كان يحلو له أن يفعلَه هو أن يسردَ ذكرياتِه أو رؤيتَه لحدثٍ ما.

اليومَ، حين أفكّر في العالم بلا تعليقات سهيل إدريس، أشعر بأنّ شيئًا من الخواء يغلّفه... إلى أن تمنّ علينا الأيامُ بمثله، وهذا ما قد لا يتكرّر في جيلٍ أو جيلين متتاليَيْن.

ولكنْ، لماذا أكتب هذا الآن؟

أكتب أولاً لأُفرغَ قليلاً مما يعتمل في الروح، إذ عليها أن تحاولَ تعبئةَ فراغاتٍ كبيرةٍ وعميقةٍ في وحدةٍ هائلةٍ كالتي أعيشها هنا [في دبي]. وأكتبُ، وفي بالي سماح أولاً: هل أريده ان يقرأ كلماتي؟ ولكنّ هذا هو **تحديدًا** أحدُ أسباب كتابتي الآن عن الدكتور سهيل. فعلاقةُ سماح بسهيل أعمقُ وأعمُّ ممّا قد أستطيع تصوّرَه يومًا عن علاقةِ ابنٍ بوالده، ووالدٍ بابنه، ومعلّمٍ بتلميذه النجيب. أفكّر في أنّ هذه الكتابة مدفوعةٌ برغبة الاحتفاظ باللحظات التي بدأتْ تبتعد، تلك اللحظاتِ الحميمةِ التي حظيتُ بمتعةِ الإطلالة على بعض جوانبها.

سماح الحبيب، لا شكّ في أنّ في الفقدان فرصةً لإعادة ترتيب تفاصيل الحياة بكاملها. يَخْطر لي دومًا أنّ الموتَ فرصةٌ لنضعَ لمساتِنا الحنونةَ المتسامحةَ مع كلّ خطايا الآخرين واختلاف أمزجتهم وآرائهم وثقلِ دمهم. فكيف حين يتناول الموتُ مَن وجودُه رقيقٌ كنسمة؟ كيف بمَنْ كانت كلُّ لحظاته (التي عايشتُها أنا على الأقلّ) تتراءى لي فضائلَ؟

أيةُ محبة تعتمل فيك الآن؟ أيُّ اشتياقٍ أيُّها الغالي، وأنتَ الذي كنتَ، في حضوره في الدنيا، تحكي عنه بلهفةٍ وشوقٍ لا يُخطئان؟ أيُّ إصرارٍ يولّده فيكَ غيابُه، إصرارٍ على أن تكون ما أراده لكَ دومًا، تمامًا بالقدْرِ الذي صرتَ أنتَ تُريده لنفسكَ على ما أحدس؟

الآن، أراكَ منشغلاً في النظر إلى تلك الحياة الغنيّة التي مَنحتْكَ كثيرًا من الفرص لتكونَ ما أنتَ عليه. أمْ تراك حزينًا بإنتاجٍ كان، رغم حزنكَ المفترض، يَفْخر به أبوك أعظمَ الفخر؟

كم كان يشعر بأنّه محظوظٌ بكَ يا سماح! كان يهمّه دومًا أن يسألَ عن افتتاحياتك، وكان يشير إلى جرأتكَ بأعلى نبرات الفخر. يسألني عن أنشطةٍ شاركتَ في إعدادها لصالح نادي الساحة أو «حملة المقاطعة» أو «حملة المقاومة المدنية»: عن نوعية الحضور، والنقاشاتِ التي جَرَتْ، والأفكارِ التي طرحتَها. ويحلو له مراتٍ أن يحكيَ عن تفاصيل حياتكَ بالذات: حين كنتَ طفلاً، وحين صرتَ يافعًا، وحين ذهبتَ لتدرسَ في أمريكا ولكنكَ بقيتَ تمور حبّاً ببلادِكَ، بلادِكَ التي خُضْتَ أصعبَ دروب الانتماء اليها، لأنها دروبُ الانتماءِ الناشطِ والنقديّ في الوقتِ نفسه. (أتستحقّ هذه البلادُ مَن كانوا مثلَك؟ ولكنْ، بغير هؤلاء، كيف تكون البلادُ بلادًا؟)

أبوكَ يا سماح ـ ذلك الرجلُ الذي تَفُوقه قامةً، وتتباريان في عِظَم أحلامكما وعلوِّ همّتكما ـ كان برغم الوجع والتعب والمرض سعيدًا بمواقفكَ في آخر حروب إسرائيل على لبنان قَدْرَ سَعادته بانتصار المقاومة: هذه المقاومة التي ما زالت ميدانًا آخرَ لا غنى لقلمِكَ ولحريةِ أفكاركَ عنه كي تتبلورَ وتكونَ، ليكونَ الإنسانُ.

أيُّ رجلٍ عظيم يتطلّبه الأمرُ كي يكون ابنُه، إلى هذا الحدّ، سماحًا؟ فكما لا شبيهَ لسهيل إلاّ سهيل، فلا شبيهَ لكَ إلاّ ما قد تأتي به ابنتاك، اللتان لا أشكُّ في أنّهما ستُكْملان خوضَ تلك الدروب، وإنْ بلمساتهما الخاصة، كما هي لمساتُكَ أنتَ على خطى أبيك.

أعرفُ أنّ كلامي ليس دقيقًا: فلا ريبَ في أنّ ثمة ظروفًا وعواملَ كثيرةً تداخلتْ في تربيتكَ وصوغ تجربتكَ كي تكونَ ما أنتَ عليه الآن. ولكنكَ، كما قالت والدتُكَ عايدة في معرض ردّها على فخري كريم، ابنُ الآداب القديمة. وما حداثةُ هذه المجلة على يدكَ، ومواكبتُها للعصر وتغيّراته، إلاّ استمرارٌ لروح الآداب وهويتها. فـ الآداب ليست زمنًا: إنها فكرةٌ تصنع الموقف.

الحبيب سماح، بدأتُ هذه الكتابةَ مساهمةً في شكر هذا الرجل على ما أتاحه لي من خيرات. ولكني أكتشفُ خلال الكتابة الآن أنّ الأمر لا يقتصر على ذلك وحده: فأنا لن أستطيع أبدًا أن أتوقّفَ عن شكره، لا بسبب ما أدّاه للثقافة والحياة فحسب (وهو ما أَسْهب فيه كلُّ مَنْ كتب في عدد الآداب العظيم الأخير)، بل لأنه أبوكَ أنتَ تحديدًا يا سماح. فوجودُكَ، أنتَ وعائلتكَ الصغيرة، واستمرارُ نضجي من خلال معرفتي بكم، أمرٌ غيرُ قابلٍ لأن يحاطَ بآثاره في حياتي... لا اليومَ، ولا في ما قد يأتي من الأيام.

هكذا أجدُني أشكرُ سهيل إدريس على تَركةٍ قد تُعتبر بديهيةً: فكلُّ الناس تُنجبُ لتخلِّدَ. ولكني أشكره على أنه كان الأبَ الذي ربّى سماحًا، وفيه ومعه يربّي الأملَ، ويربّي العنادَ اللازمَ للإمساك بهذا الأمل.

أشكره على رائدة. وأشكره على رنا التي لا أجد كلامًا لأعزّيَها، وهي التي لا تتقن مغالبةَ مشاعرها إلاّ بمزيدٍ من الإنتاج الذي لا أشكّ في أن سهيلاً يَفْخر به الآن كما كان يَفْخر به دومًا. أشكره على ملء وجوده بالتفاصيل التي تناولناها مع عائدة، «حبيبةِ عمره،» بالدموع والحكي في آخر لقاءٍ لَفَّنا في حضرة غيابه الباذخ في بيروت. وأشكره لأنه لن يموت حقّاً: فهو يبقى فيكم وفينا ما بقيت الآداب، مجلةً ودارًا ونبراسًا ينير طريقَ الأمل الطويل.

شكرًا للقراءة يا سماح. والشكرُ، أولاً، لوجودِكَ ابنًا لسهيل إدريس: المدرسةِ التي لم يُنْهِ أحدٌ علومَه فيها بعد.

ملاك خالد (دبي)

❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖ ❖

IV ـ رسائل تعزية

عايدة وسماح وجميع آل إدريس،

تلقيتُ، بالحزن والأسى، رحيلَ سهيل إدريس، الذي عرفتُه صديقًا، وإنسانًا أصيلاً، ومسؤولاً ثقافيّاً التزم بقضايا الثقافة العربية ووسّع آفاقها، واحتفى بالإبداع في وجوهه المختلفة. وما مجلةُ الآداب، كما دارُ الآداب بعامةٍ، إلاّ مرآةٌ لجهود الراحل الكريم وتطلُّعاته، التي أفردتْ مكانًا مستمرّاً للدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني وحقّه في الحياة.

محمود درويش (رام الله)

حضرة الدكتور سماح وعائلته المحترمين،

تحيةً لروح والدكم الدكتور سهيل إدريس، وهو الروائي والمعجمي والكاتب الالتزامي والصديق والمؤسِّس والمناضل في مجال وطنه وأمّته. ومن هنا مصابُكم مصابُنا، وأرسل إليكم هذه الكلمة عزاءً عن الخسارة الكبيرة. ولنا ملء الأمل أنّكم على طريقه، وأنكم تعملون دائمًا للحقّ والخير الوطني والجمال المطلق.

شوقي أبي شقرا (بيروت)

أخي وعزيزي د. سماح،

أظنّ أنّ مَنْ كان يعيش في «آخر ما عَمّر اللّه،» ويغيبُ عنه ما يغيب أو يفوتُه ما يفوت، يحقّ له أن يُصْدَمَ برؤية الغلاف [غلاف العدد السابق من الآداب] عن الحادثِ الجلل. لقد فُجعتُ برحيل معلّمي الكبير، ومَنْ شربتُ زلالَهُ الثرّ وتمثّلتُ في آدابـه، منذ أواخر الستينيات، هويّةَ الأدب الحقيقية. لقد كان الدكتور سهيل إدريس، وما أبغضَ هذا الفعل «كان،» المحكَّ والمعيار. بفقدِه أُحسّ أنّي خسرتُ شيئًا ما في حياتي. ولوهلةٍ، لم أقوَ على مغالبة الدمعةِ اليتيمة.

مواساتي لكم، ولي.

موسى أسوار (طهران)